# رثاء الأستاذ الأكبر

للاستاذ عباس محمود العقاد

عصف النعيّ بكل قلب خافق ... يوم استطار بنبي عبد الرازق
من راب سمع السامعين بخطبه ... وهو المعلّم كل علم صادق
ومن استقام على الفضيلة والتُّقى ... ورعى مع المخلوق حق الخالق
ومن ارتضى شيم الثبات لزيه ... ولرأيه ، ولكل سمت لائق
ومن اتقى حسد الحسود بخير ما ... يُرجى ويُحسد من نُهى وخلائق
نظرٌ كسارى النجم مؤتلق على ... أدب كأقواف الربيع العابق
بلغ المدى في الدين والدنيا معاً ... وعلا من الأحساب ذروة شاهق
أسفاً عليه ! وكم حزين آسف ... أسـفى على ذاك المحيا الرائق
ماذا عليـــه لو استتم بقاءه ... كتمامه في كل وصف فائق
ذاك الذي كملت جوانب فضله ... وتناسقت في الحسن أي تناسق

من مثل نابغة النوابغ مصطفى ... في سابق من مجده أو لاحق
رجّاه والده الكريم لغاية ... حسنى ، فوفاها وفاء الواثق
ربّاه حِبراً للديانة فاستوى ... في نخبة الأحبار أسبق سابق
ونماه في حجر العبادة مسلماً ... فهدى الحجيج وحج كلّ منافق
وأعده للمـــلم فاستوفى به ... حظ العليم الفيلسوف الحاذق
وغذاه بالتبيان فانقادت له ... غرر اليراع بكل معنى شائق
وهداه للاحسان فهو وليه ... لمعاهد الإحسان غير مفارق
ورجاه للعلياء فاستبق الخطى ... سبق الكرام إلى المقام السامق
لا وانياً عنها ، ولا متعجلا ... فيها ، تعجّل مشفق من عائق
وكأنه وعد الأمين وفى به ... فطوى صحيفته كلمح البارق
لو لم يكن قدراً قضاه لما قضى ... كالنجم يرجع غارباً من شارق
إن الطالع لا يقر قرارهـا ... بعد التمام ، ولا تدوم لطارق

يا آخذاً من كل شيء صفوه ... بورکت من ذي معجزات خارق
حتى الخمول بلغت غاية حظه ... عجباً ، وأنت من العلا في حالق
لم ألق قبلك من نبيه آمن ... من شرة الباغي وغيظ الحانق
تلك المدامع ما امتزجن بدمعة ... من كاذب في حزنه أو ماذق
ولتلك من رضوان ربك آية ... تخذت من الأبجاع أصدق ناطق
فادخل حظيرته بخير خلائق ... مرضية منـه وخير علائق
ما الموت يا كشاف كل حقيقة ... إلا حقائق حُجّبت بحقائق

# مصطفى عبد الرازق

## الشيخ الأكبر الذي فقدناه !

للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

أيها الروح الزكي الكريم الذي حبسه الموت عن كل قلب عرفه كما يُحبس النسيمُ الرخيُّ عن قلب المحرور الظمآن !

أيها العقل الكبير الذي حول في نفسه ما عرفه من هدى الدين وفلسفة الرأي الصحيح إلى حكمة الخلق الراجح واللفظ النزيه والعمل المبرور ، فلم ير فيه الناس ذلك التناقض البغيض بين حكمة القول وطيش العمل ، وعلم الدرس وجهل العيش ، بل رأوا دينه وعلمه وحكمته كماء الشجرة الطيبة يحييها ويجري فيها عنصراً أصيلا يتحول لُباباً حياً وورقاً حريرياً نديا وزهراً شذياً وثمراً شهياً يملأ الحواس والإدراك وحيُه وتعبيره ، لا كالماء في شجرة الحنظل يتحول فيها إلى مرزُعاق ، أو في دم الأفعى يتحول إلى سم مَدُوف كما يتحول العلم في بعض العقول !

ويا أيتها الواحة المخضَلّة الوارفة التي كانت تعيش هادئة في مَدّ الرمال الطاغية ، رمال الخيلاء العلمية المزدهاة والتقعرات الكلامية الجوفاء ، والدعاوى العريضة والمزاعم النادية على نفسها مناداة التاجر في الأسواق !

ويا أيتها السكينة النفسية التي كانت تشع على من يقرب منها ألواناً من الرضى والطمأنينة ، وتدخله إلى رحاب عالم من السكون والصمت المتحدث !

ويا أيتها « القطعة الفنية » الباقية من الشرق الكريم في وجوهه الحيية وألفاظه العفيفة وثيابه الساترة التي فيها شخصيته وأبوته ووقاره !

ويا أيتها الصوفية العقلية العملية التي تربي مُريدَها بالأدب الرفيع يتحلى به الكبير أمام الصغير فيأخذه عنه بدون قوالب ألفاظ وفلسفات ومجادلات ، بل بذلك السر الخفي الذي يعطيه الآباء الحكماء للأبناء !

ويا أيتها المكرمات التي لا حد لما كانت تبذله من جاهها وما لها وحسن إقبالها على المحتاجين إلى رها ، كأنها الينبوع الفياض في هدوء بين قسوة الظروف وشح الأنفس !

ويا أيتها التقاليد الصالحة العارفة بما عند قومها من محامد ، فهي معتزة بها مستمسكة بمراعاتها في آداب البيت والزي واللهجة وإن اختلاف الزمان واختلت الأوضاع وطغت عوامل التحلل من الواجبات والتقاليد الكريمة على البيوت والألسنة والحرمات !

ألا أيتها المعاني والعوالم التي كانت مجسمة في هذا الجسم المهذب الحواشي الدمث الجوانب الذي كان الكمال والسمت يقيده في الحركة واللفتة والكلمة ... هل يملك مثلي ممن كان يعيش معك فترات يجدد فيها ذكرى والده في صورتك وروحك ويحيي الوفاء الذي كان بينكما ، إلا أن ينظر الآن من وراء الغيب إلى هذه الحفرة التي أسلموا إليها ذلك الجسم الزكي الحبيب الذي كان يحتلك أيتها المعاني ؟ ! وماذا يغني النظر في تلك الحفر التي مضى إليها كل من كان ويمضي إليها كل من هو كائن في أبد الآبدين ؟ ! ... هل يغني إلا الحسرة على الفقد وضياع ما في يد الإنسانية من تلك المعاني العزيزة النفيسة التي هيهات أن تجتمع في ذات إلا في خطفات زمنية وذوات معدودة يجود بها الزمان على بخل وشذوذ ؟ إن هذه الذوات التي تجتمع فيها هذه الخلال إنما هي الكتب الحية والكلمات المجسمة التي تفسر الأفكار والأحلام التي يقرؤها القارئون في عالم الكتب المسطورة فيظنونها مخلوقات من عالم الأطياف لا حياة لها على هذه الأرض حتى يروا النموذج في شخص حي فيصدقوا ...

وكم يرى الناس من عالم يملأ طباق الفكر علماً ، ولكنه لا يملأ الفجوة الواعية الحساسة الصادقة في النفس ! لأن علمه منفصل عن ذاته وحياته ، فهو في فكره كالشيء المقتنى في يده ، لم يجر من ذاته مجرى الدم في قلبه والرأي في عقله والخلق في سلوكه فهو حقيق ألا يرى الناس فيه قدوة تهدي أرواحهم القلقة ؛ وإنما ينظرون إلى علمه بإعجاب ، كإعجابهم بالمشموذ أو الحاوي !

وكم رأى الناس من روحي لا يحسن الكلام ولكن يحسن السلوك والعمل وتفيض يداه بالخير وقلبه بالعطف فيكون فيه للناس علامة مشيرة أبداً إلى منطقة النجاة من لجج الوحل والدنس التي تقطع السبل على الرجل المتطهر ! فإذا اجتمع العلم والروح في شخص كان فضل الله عليه عظيما ، فإذا كان ذلك على غنى وجاه لرجل يؤدي زكاة الغنى والجاه بالكيل الوافي كان ذلك فضلا عظيما مضاعفاً يعتبر نُدْرة تجمع عليها القلوب بالحمد .

أنا واثق أن كل فرد ممن اتصل بالفقيد يستطيع أن يسرد وقائع شخصية له من مكارم هذه الذات ، أدبية أو مادية ، ولذلك أقترح أن تدون هذه المكارم لتضم إلى المذخور المأثور عن أجواد العرب وساداتهم وعلماء المسلمين الأبرار ، فإن في هذا التدوين ثروة تضاف إلى عبقرية الخلق التي هي أعظم العبقريات في الإنسان على رغم ما يشاع عن عبقرية الفكر أو عبقرية الفن ، لأن عبقرية الخُلُق هي (فن الحياة) الذي ينمو في ظلاله الاجتماع الإنساني بما فيه من نتاج فكري وفني وعملي ، فهي عبقرية أشبه شيء بالأمومة المضحية الفادية المعطية من غير أخذ . وهي عبقرية يختص الله بها قلوب طراز من الرجال يصح أن يسمى ( الرجال الأمهات) ! لشدة حبهم لنفع الإنسانية وتفانيهم في خدمتها وبرها.

أيها الروح الزكي الذي كان أباً وأخاً وصديقاً للجميع ؛ إن القوم اجتمعوا لا ليكرموا ذكراك ، فإنها عنصر من مكونات معنى الكرم ذاته في أفهام الناس في هذا العصر ... ولكنهم اجتمعوا ليكرموا أنفسهم بحديث ذكراك . ولو أرادوا أن يكرموك لأدركوا منك في حياتك كامل ما أدركوه بعد فقدك... ولكنهم اعتادوا مع الأسف الشديد ألا يكرموا الفضائل إلا بعد موت الفاضل ... لأن انتقال الموت يفجأهم ويفجعهم فيحسون أن الأرض تزلزل تحت أقدامهم بعد أن يتحطم قطب من أقطاب حياتهم عليها ... وكانوا يدورون حوله وهم لا يشعرون ...

فمتى ترشد الأمم الشرقية فتتمتع بثمارها الناضجة التي أودع الله فيها سر النوع البشري قبل عطبها أو اختطافها ! لماذا لا ندرك منازلهم في قلوبنا إلا بعد فقدهم ، لماذا لا نسرهم في حياتهم بالاستجابة لداعية الخير في نفوسهم حتى يمضوا مطمئنين إلى بقاء الخير والبر بعدهم ؟ لماذا لا تكون الدائع قبل المراثي ؟

ما أصدق تلك الكلمة التي قالها الأول :

لا أعرفنك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي !

وما أصدق قول الآخر :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ... ما دام حياً فإذا ما ذهب
يلج به الحرص على نكتة ... يكتبها عنه بماء الذهب !

فاللهم ارشدنا وبصرنا حتى ندرك أن أعظم ثروات الأمة هم رجالها الأفذاذ في الخلق والعلم فننتفع بهم ونتمتع بعبقرياتهم ، ولا نضيعهم ثم نبكي عليهم !

روّح الله روح الفقيد وأرواح أحبائه ، وأحسن العزاء فيه للجميع فإنه فقيد الجميع .

عبد المنعم خلاف